مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/65

رت م د: 1112-685x
رت م د إ: 2588-2236

المجلد: 15 / العدد: 03 / ديسمبر 2022
ص ص: 199 ـ 211

تمويه الذاكرة وانفلات المحكي في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح

Memory camouflage and alienation In the novel "Me and Haim" by Habib Sayah

سمرة عمر *

كلية الآداب واللغات

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي

تبسة / الجزائر

Samra.amor@univ-tebessa.dz

تاريخ الارسال: 2022/07/05 تاريخ القبول: 12/06 /2022 تاريخ النشر: 2022/12/31

الملخص:

يتناول هذا المقال موضوع "الهوية" في الرواية الجزائرية، الذي يظل مسألة ثقافية قائمة، تعدها الدراسات المختلفة إشكالية معقدة وتطرحها المتون الروائية بشكل يكشف تأثيراتها النفسية في القارئ، تقوم معها إجابات احتمالية نسبية يقدمها المتلقي المتعدد وفقا لمرجعيته الثقافية والاجتماعية. ويهدف إلى إبراز علاقة "الأنا بالآخر" في رواية "أنا وحاييم" لـ(الحبيب السايح) التي يقع نصها في أزمة على مستوى الهوية، تتمثل في عدم تمكينه من تحقيق ذاته وضبط مرجعيته، وتنظيم شبكة علاقاته.

ويخلص في الأخير إلى أن رواية "أنا وحاييم" لـ(الحبيب السايح) نموذج للنص مزدوج الهوية، الذي يسعى من خلال المزج بين هوية المسلم واليهودي إلى محو الحدود الفاصلة بين ما هو قيمي وأخلاقي ينتمي إلى الدين الإسلامي وما هو مختلف ينتمي إلى الأصول اليهودية.

الكلمات المفتاحية: تحليل الخطاب، الهوية، الأنا والآخر، الخطاب الروائي، الحبيب السايح.

Abstract:

This article addresses the topic of "Identity" in the Algerian novel, which remains a cultural issue, prepared by various studies as a complex problem and presented by the fiction body in a way that reveals its psychological effects in

* **المؤلف المرسل.**

the reader, with which the responses are based on the relative likelihood provided by the multiple recipient according to his cultural and social reference. It aims to highlight the relationship of "ego to ego" in the novel "Me and Haim" by Habib Sayeh. whose text falls into an identity crisis, namely, not being able to realize itself, to control its reference and to organize its network of relationships.

Finally, he concludes that the novel " Me and Haim " by Habib Sayah A double-identity text model, which seeks to blend the identity of a Muslim with a Jew to erase the boundaries between what is valuable and moral belonging to the Islamic religion and what is different belonging to Jewish origins.
Keywords: discourse analysis, identity, self and the Other, Fiction Speech, Habib Sayah.

مقدمـة:

تحكي رواية (أنا وحاييم) للحبيب السايح قصة صداقة فريدة بين شخصين هما (أرسلان) الجزائري المسلم و(حاييم بنميمون) المستوطن اليهودي، نشأت منذ طفولتهما في مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، إلى مرحلة ما بعد الاستقلال كزمانية مأهولة بالأحداث المتعالية على الذات والتاريخ، والمؤسسة لسردية بديلة تستمد خطابها من رمزية الإنسان، ولكن بمنظور يجترح نمطا للذاكرة انتهاكيا مغايرا لبنية الذاكرة العربية، ينبثق من رحم التصدع والهشاشة لعلاقة تبدو ملتبسة بين طرفين متناقضين، إنه تجسيد لوعي جديد بالآخر اليهودي وبحث عن أفق أكثر رحابة لاحتضانه، فعلى عكس ما كان منتظرا تمثل حكاية (أنا وحاييم) انفتاحا خائبا على الآخر، نموذج الظالم والمغتصب، وهو ما يتوضح في تشخيص شخصية اليهودي الذي يشتغل رمزا للصداقة، ما وضع سرد (السايح) في محك خطاب نقيض يطرح رؤية بديلة هي الانتهاك في مقابل الالتزام، وبالتالي فهذا الوجود الجديد للآخر انزاح بخطابه نحو الانكفائية والانغمار الفردي فيه، وهو وإن داعب مخيلة الذات بصور متعالية على الواقع والتاريخ، فإنه وبحكم ما يطرحه من تناقض لا يمثل حلا لتناقضاتها. وعليه جاءت إشكالية البحث كالآتي:

- ما مسوغات هذه الرؤية المتنافرة في خطاب (لحبيب السايح)؟
- كيف تمثلت الشخصية اليهودية في رواية (أنا وحاييم)؟
- ماهي أسباب تغيير رسم ملامح الشخصية اليهودية في المنجز السردي العربي؟

وينطلق البحث من فرضية مفادها: أن الرواية العربية ومن بينها الرواية الجزائرية تؤطرها مرجعية موحدة حول موضوع الشخصية اليهودية، التي تقع تحت تجاذبات الرؤية

السلبية في السرد العربي، وتشتغل دالا يجذب حقل المستعمر والمغتصب والظالم والجائر...إلخ، فهل هي كذلك في رواية (أنا وحاييم)؟ التي تبدي القراءة الأولية لها أنها تتجاوز حدود هذا الاشتغال، وتصور الشخصية اليهودية في خطابها بوجه جديد وبطرح فكري مغاير، يؤمن بالتجاوز والمشترك الهوياتي.

والهدف المتوخى من هذا المقال هو تقديم رؤية شاملة حول علاقة الأنا بالآخر اليهودي في رواية (أنا وحاييم)، وتبين المنحى المغاير الذي اتخذته ملامح الشخصية اليهودية في الرواية المذكورة. كما تكشف استراتيجية تقويض المنظور السلبي، وتشيد كل ما هو إيجابي حول هذه الشخصية، التي طالما جوبهت بالنفور والعداء من قبل الروائي الجزائري، وإبراز كيف تناول (الحبيب السايح) هذه الشخصية في روايته من زاوية ورؤية مختلفة تتجاوز الحدود المتعارف عليها للرؤية بالمفهوم السردي حول شخصية اليهودي.

أما منهجية البحث فقد سارت وفق مقدمة تمهد للموضوع المدروس، تأتي بعدها إشكالية البحث وفرضيته والهدف المتوخى منه، ثم يليها البحث في الذاكرة السردية في رواية (أنا وحاييم) مع التفصيل بعناصر بحثية تطبيقية تبين انفلات هذه الذاكرة وتحيزها للشخصية اليهودية والمنظور الذي يؤطرها، ثم تطرقت إلى البحث عن مسوغات الحكي الإيجابي وما وراءه حول هذه الشخصية في الرواية المذكورة، ثم خلصت بخاتمة تتضمن أهم النتائج المتوصل إليها في المقال.

1. الذاكـرة:

تحيل الذاكرة في المعاجم العربية على الشيء الحافظ[1]، وفي علم النفس الذاكرة (Memory) "إحدى الوظائف العقلية المختصة بذكريات الفرد وما مر به من تجارب وما تعلمه من معلومات. وباستدعاء ما يحتاجه الفرد من كل ذلك عندما يكون في موقف يتطلب منه ذلك"[2]؛ فالذاكرة ما يختزنه العقل من تجارب ومعلومات، تقوم عملية التذكر لدى الفرد باسترجاعها وقت الحاجة.

وتعتبر ذاكرة الفرد إحدى قدراته العقلية. ولذا فالناس تتفاوت فيما بينهم من حيث قوة الذاكرة، وإن كانت الذاكرة تتأثر عادة بدوافع الفرد وبتكوينه النفسي عموما، فتعمل الشعورية واللاشعورية على الاحتفاظ في ذاكرته ببعض المعلومات ونسيان بعضها الآخر.[3]

والذاكرة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الفرد داخل المجتمع، فالذكريات هي ذكريات التجـارب الاجتماعيـة (Sociabilité) المشتركـة بين كثيـرين والتي لا معنى لهـا إلا وسط جماعـة مـا.[4]

وتسجل الذاكرة في الأدب <<أحوال أمة محددة التاريخ والمساحة واللغة، ومحددة الخيبات أيضا>>[5]؛ لذا فالأدب هو المسجل لتواريخ الأمم والشعوب، وناقلا لثقافاتهم وظروفهم الاجتماعية التي مروا بها من فقر، وحروب ومآسي...إلخ.

والذاكرة في الرواية لا تختلف عن التصورات السابقة فهي إما فردية تترجمها ذاكرة الراوي أو البطل أو أحد الشخوص. وإما اجتماعية هي ذاكرة المجتمع أيضا، أو ذاكرة طبقات المجتمع التي تظهر في رؤى وأصوات متقاربة أحيانا ومختلفة ومتصارعة أحيانا أخرى.

وفي رواية (أنا وحاييم) ترتبط الذاكرة منذ الصفحات الأولى بالراوي وبشخصية (أرسلان)، الذي يستعيد من خلال خطابا الذاكرة أزمنة من تاريخ الجزائر الحديث أثناء وبعد الاستعمار الفرنسي مقترنة في كل محطاته بشخصية (حاييم)، اليهودي الذي يسيطر على ذاكرة الراوي، ويبدى حضورا استثنائيا، إذ لا تخلو صفحة من صفحات الرواية تقريبا من ذكر (حاييم) الشخصية الفذة كما يصورها الراوي، المثقفة والمتزنة لذلك نجد الرواية تنخرط في الدفاع عن الذاكرة المتعاطفة مع (حاييم) اليهودي.

إن الرواية منذ البدء جاءت خطابا يقاوم الذاكرة الجماعية، ويستعيد ذاكرة الراوي الفردية المسكون بـ(حاييم) والزمن الطويل الذي جمعه به يقول الراوي في الصفحة الأولى للحكي: "**تقدمت وعند الباب الصامت، ذاك الذي رأيت حاييم يخرج منه بمحفظته قبل ثمانية وعشرين عاما كي نتوجه معا لأول مرة إلى مدرسة جول فيرّي..**"[6]، فذاكرة الراوي تعود به إلى ما يقارب ثلاثين عاما، بدايات صداقته مع اليهودي (حاييم)، أيام الطفولة وبداية التحاقهما بالمدرسة التي جمعتهما، ومهدت لنجاحهما في مراحل لاحقة من دراستهما. هذا التذكر أرجع الراوي إلى البدايات البريئة وعلاقته بحاييم اليهودي ولكنه أغفل أن هذا التاريخ مقترن أيضا بمآسي الشعب الفلسطيني، إذ ليس بعيدا عن ذلك الزمن -حسب ما ورد في الرواية- كان يقتل ويهجر وينكل مسلمون أبرياء من طرف يهود غير أبرياء، وهو ما يجعل من رؤية (السايح) التاريخية متناقضة ومنافرة لتاريخ الأمة العربية (المسلمة)، التي لا تنسى مثل هذه المحطات المهمة في تاريخها، وذاكرتها المثقلة بالظلم والقهر المسلط عليها من قبل هؤلاء اليهود. فللأزمات والمحن دور هامّ في تشكيل الذاكرة الجماعية، فهي تحدث تغييرا في العلاقات

وفي علاقات الناس بالمكان أي في ذاكرتهم، ولا يكفي أن يعيد الفرد ترميم قطع من صورة حدث وقع لتكون له ذكريات، بل يجب أن تكون إعادة الترميم والبناء هذه وفق معطيات ومعايير مشتركة مركوزة في العقول[7]، لذا نلحظ منذ الصفحة الأولى للرواية رؤية ضبابية تمهد لنمط جديد من الكتابة حول اليهودي في الرواية العربية والجزائرية على وجه الخصوص.

أ. الكتابة من أجل تمويه الذاكرة:

لا تكمن أهمية الخطاب الروائي في قدرته على نقل المضمون الفكري فحسب، بل لقدرته في التأثير على عدد كبير من القراء، وهو ما يحاول فعله نص رواية (أنا وحاييم) بالقارئ العربي، إقناعه والتأثير فيه بمضمون فكري جديد تتجلى فيه صورة اليهودي المثال في منظور الراوي، والذي تقدمه الكتابة لتجابه به الذاكرة العربية وتموهها بأن هذا اليهودي رمزا للوفاء والإخاء والأمن والسلم.. إلخ، يقول الراوي: **"حاييم، برغم ما يظهر عليه من تحفظ، لدى من لم يعرفه عن قرب كما عرفته، اختزن مثل كنز، روحا ظريفة ومليحة. فقد كان سباقا إلى إثارة ما يدخل علي سرورا..."**[8]، ويقول في موضع آخر: "**كنت أجد كل شيء في حاييم يدعو إلى ذلك؛ ذكاؤه المتوقد وهيئته السميحة، رزانته الوطيدة وطيبة نفسه**"[9]. ويقول: **"كان حاييم الذي ظلت سريرته النقية تهرني..."**[10]، ففي هذه المقبوسات ما يشيد ويعلى من شأن اليهودي (حاييم) الذي يشتغل رمزا مشبعا بقيم مثالية، متناقضة مع تصور القارئ العربي له.

تواجه الكتابة من خلال المقبوسات السابقة ما هو ثابت وراسخ في ذاكرة الأمة، تحاول طمس تاريخ أجيال وتقدم رؤية بديلة تبدو من خلالها الحقائق زائفة، ليقع نص الرواية في محيط الشك، وتعمق الفجوة بين القارئ والمقروء، ففي ظل الأسئلة التي تطرحها رواية (أنا وحاييم) فيما يتعلق بحدود الكتابة، وبحكم انفتاحها على الآخر اليهودي تضع القارئ أمام سؤال الأنا والهوية فالنص الروائي هنا يصير بنية رمزية دالة تصوغ من التاريخ كوقائع ثابتة، صورا ورؤى للعالم. لارتباط الفعل التذكري بالهوية يعود إلى كون السرد سواء أكان فرديا أم جماعيا يعد من أهم الأدوات الممكنة لفهم التجربة الإنسانية، بسبب تجذر الفرد في الحاضنة الاجتماعية والثقافية التي يشتبك بها.[11]

ب. ذاكرة ضد أمة ووطن:

يواصل فعل الكتابة في رواية (أنا وحاييم) مساره الانتهاكي، باعتباره مسارا ضد تاريخ الأمة، وتاريخ الوطن (فلسطين) المسلوب، ولكن لتعاطف السرد مع (اليهودي) يصور كزاهد

بفعل تمويه الحكاية لتنقل صورة اليهودي من لاهث وراء الأرض الموعودة إلى زاهد فيها، يقول الراوي:

"قلت له إلى أين تريدني أن أغادر؟ هذا وطني. هنا ولدت وولد آبائي. وأخلاط جسدي من تربة هذه الأرض. وفيها أدفن مثل آبائي. فلسطين ليست أرضي ولا وطني"[12]؛ فهذا الخطاب الذي ينقله الراوي على لسان (حاييم) يعد مفارقة في حد ذاته، حيث يورط الحكاية في سياق الغرابة، فعلى مستوى التلقي يريد أن يقنع القارئ العربي أن اليهودي لا تهمه (فلسطين)، وهو شخص مقتنع بالأرض التي وجد فيها. وهو الأمر الذي يؤكد انزياح الذاكرة ويدعم مسارات الانتهاك والخرق، بما تتيحه من إمكانات الانتقال من الحقيقة إلى اللاحقيقة ومن الواقع إلى الزيف. فهذا النمط من الحكي يدعم الرؤية العامة لنص (أنا وحاييم) ويترابط مع عناصره الدالة، التي تحيل في تظافرها إلى الإعلاء من صوت اليهودي في الرواية. باعتبار هذه الأخيرة خطابا ينغرس في الوعي الجمعي عبر الكتابة، ويتقوم بالمنزع ذاته، لذا يجب أن تحضر النصوص الروائية وتتشكل كحاجة اجتماعية، لا كحاجة لفئة محدودة.[13]

ج. سياسات الذاكرة:

تريد رواية (أنا وحاييم) عبر استراتيجية الكتابة المضادة للذاكرة، أن تعيد كتابة الماضي من منظور تفكيكي ينتهج سياسة تقويضية لما هو سائد منذ القديم، ويدعو إلى تغيير وجهة نظر القارئ تجاه اليهودي، يقول الراوي وهو يصف حالة الأهالي الجزائريين وهم يعيشون الاحتلال من طرف الفرنسيين، متحيزا ومتعاطفا مع اليهود:

"وخلال الشهرين اللذين قضيتهما مع حاييم في حي بارناق، بفندق الحديقة، ظلت تحزنني صور الفقر والحرمان والتشرد التي عليها الأهالي، بالقدر الذي أغاضني العنصرية التي كانت غالبية الأقدام السوداء والأوربيين تظهرها تجاه الأهالي المسلمين. وكان الغلاة منهم لا يزالون لا يخفون ذلك تجاه اليهود المتقدين بألبسة الأهالي، من المسلمين، ومأكولاتهم ولهجتهم وغنائهم؛ حد أن يصعب التفريق بينهم؛ يشتري هذا وذاك اللحم نفسه من عند الجزار نفسه. ولا يقربون جميعا مطعما يقدم لحم الخنزير؛ ولو أن بعض المسلمين كانوا يرتادون الحانات، مثلي مع حاييم عشية السبت أحيانا"[14]، عبر سياسات السرد يتم تفعيل نموذج (اليهودي/المسلم)، على أساس التشابه وكاستراتيجية مضادة لخطاب الاختلاف، بهدف تقويضه وبث الأفكار الجديدة الخاصة باليهودي وعلاقته بالمسلم، على أنها

علاقات طبيعية ويؤطرها تاريخ عادي، وعبر هذا التداعي تنفتح الرؤية على زمن الاستعمار في الجزائر لتصور حالة الأهالي في تماهيهم مع اليهود، والتي ينقلها الراوي بإعجاب على أنهم أهل بلد واحد يتقاسمون اللغة الواحدة والعادات والتقاليد نفسها، والعنصر الدخيل هو الأوربي الفرنسي، ولكنه تناسى أن هذا اليهودي أيضا فرنسي وافد، ويتميز كمثله من الفرنسيين المحتلين عن الجزائري المسلم، وأنه في أرض غير أرضه، وهو غاصب ومنتهك للأعراف والقوانين الإنسانية.

وما يريده الراوي من ذاكرته أيضا يتجلى في قول (أرسلان):

"**هل كان لغير السلام أن يتيح لنا هذه الفرصة الاستثنائية لنلتقي، رد حاييم علينا أنا وزليخة برقرقة دمع في عينيه إذ اعتذرنا له عن الغداء مكتفين بتلبية دعوته إلى شرب قهوة...** "[15]؛ في إطار سياسة السرد، تكشف اللغة عن حكي مضاد حيث أصبح السرد خطاب الذات في الرد على الذات، وليس الرد على الآخر، متضمنا صورا خارج الذاكرة المعتادة عن اليهودي، وعملية تفكيكية تطال الذات وتشيد تواريخ جديدة، يبحث من خلالها الراوي عن (سلام) بينه وبين اليهودي، يعيد ربط العلاقات وجعلها طبيعية بينهما، ومد يد السلام يرافقها الاعتذار من قبل العربي، وهي تغيرات في الحكي، وتدشين لمسار جديد يستدعي تغيرات في المنظور والرؤية، فهذه التغيرات تكرس مبدأ الانزياح والخرق في بنية الذاكرة، وفي لغة الحكي التي تعد دعوة صريحة للسلام مع اليهودي. فالروائي من خلال ما سبق يبحث عن تجسير ما.. عن فرصة لتقديم إعانة معرفية وجمالية، وعن توسيع لمدار التجربة المشتركة ثقافيا، عن إضافة منطقة حرة جديدة لمغامرة الوعي الإنساني، وعن تعزيز النزوع النقدي لذلك الوعي.[16]

2. المحكي:

المحكي هو "مجموعة المواقف والأحداث المروية في الحكي.. أو العلامات الموجودة في الحكي التي تقدم المواقف والأحداث المروية في مقابل السرد"[17]، الذي يقدم النشاط السردي وأصله ووجهته.[18] فالمحكي يأتي في مقابل السرد، إذ يحيل الأول على الأحداث المرتبطة بـ(القصة) نفسها، والثاني على الأحداث الموجودة على مستوى السرد.

ويعد (المحكي) رهان التواصل في العمل السردي، فهناك من يمنح المحكي، وهناك من يتقبله، لذا يجب أن يكون داخل التواصل اللغوي كل من ضمير المتكلم (أنا)، وضمير المخاطب (أنت)، ولا يمكن أن يوجد محكي دون سارد ودون مخاطب أو مستمع أو قارئ.[19]

وتكون الرؤية في هذه الحالة (الرؤية مع)، وهي الرؤية التي تبرز العلاقة المتساوية بين (الراوي) و(الشخصية)، ونجدها عادة في (السرد الذاتي)، حيث يكون الراوي مصاحبا للشخصية في تبادل المعرفة بمسار الواقع. وقد تكون الشخصية نفسها برواية الأحداث، ويتجلى هذا بوضوح في روايات الشخصية.[20] وهو ما نلمسه في رواية (أنا وحاييم)، حيث تم سرد الأحداث عن طريق شخصية (أرسلان)، الذي كان صوته بارزا إلى جانب صوت (حاييم) الذي أخذ حظه في تناول الحكي، في مقابل بعض الأصوات التي تم قمعها، والتي لو فعلت لأضافت الكثير، خلافا لما جاء به (أرسلان) من قناعات حول شخصية اليهودي. لذا نجد المسار السردي للرواية يتخذ سياسة الانتهاك، وهذه الأخيرة يفرضها ما وراء الحكي.

أ. انتهاك منطق الحكاية:

تشتغل الرواية وفق منطق خاص للحكي يتصل في كل جوانبه بشخصية اليهودي (حاييم)، لتسير الحكاية في مسار انتهاكي يستمد قوته من طاقة فعل الحكي نفسه، والذي يشيد عالما خاصا ومتفردا لشخصية هذا الأخير، الذي تجاوز تواجده داخل نص الرواية كل الحدود الحكائية، فظهوره اللافت والطاغي يضعان القارئ أمام تساؤل: هل بطل هذه الرواية هو (أرسلان) أو اليهودي (حاييم)؟ والإجابة هي أن اليهودي (حاييم) هو البطل الذي يقدمه الراوي من أجل الاحتفاء به، والانتقال به ومن رمزية المدنس إلى رمزية المقدس، ووضع القارئ أمام صورة أسطورية للتحول الذي طال هذه الشخصية، التي طالما ارتبطت بالسلبية والشخصية المنبوذة في الرواية العربية. ولكن الأمر عكس ذلك في (أنا وحاييم) أين ينفلت المحكي على لسان الراوي، ناعتا اليهودي بكل النعوت المتعالية على الواقع والتاريخ:

"أعرف حاييم جيدا فلا تشكوا في خياراته حين يتعلق الأمر بوطنيته"[21]؛ يتصدع الواقع عبر هذا التشكيل اللغوي، وينتقل عبر المفارقة من مستوى اللغة إلى ما وراء اللغة، فهذا التأكيد على الترابط بين (اليهودي) -باعتباره رمزا يشتغل في الرواية- و(الوطنية) يحيل على مغامرة ذاتية يخوض من خلالها الراوي تجربة خاصة، بعيدة عن كل ملابسات الواقع. وبالتالي يكون توظيف مثل هذه الأفكار والقناعات للانفلات من دائرة الألفة، والانغمار في صيرورة التفرد والانفصال عن الأصل؛ فما هو معروف أن اليهودي في الذاكرة العربية لا وطن ولا وطنية له، ولكن بانحياز السرد لمنظوره نجد أن الرواية تمارس تفكيكا يطال هوية النص، ويطال الذات أنطولوجيا، ذلك أن الواقع السير ذاتي الذي يستحضره النص من خلال

شخصية (أرسلان) يسعى إلى الاستحالة في أن تكون الكتابة بمنطق جديد، حيث يقوم على الالتباس ويعمق الفجوة بين المرجعي والتخييلي، عندما يتعلق الأمر بقضية الذات والآخر (اليهودي) التي تتأسس في الأصل على الاختلاف والمنافرة، ولكن نص رواية (أنا وحاييم) يصر على التماثل والتطابق، يقول الراوي:

"...أخذت القلم وكتبت على كراسي شيئا ثم أدرته، في حذر، نحو حاييم. فقرأ "لا أعتقد أن في دينك كما في ديني عريا بهذا الذي كان عليه تمثال مدرستنا" تبسم. ثم كتب بدوره على كراسه وأداره، بالحذر نفسه، إلي فقرأت "لذلك يصفوننا بأهل الحرام! العري حرام. والخنزير حرام وأكل اللحم من غير ذبح حرام!..." [(22)].يمارس السرد هنا تفكيكا للهوية، تتورط معه اللغة راسمة هوية مزدوجة يحاول السارد دمجها في عنصر واحد، ويكرس هذا الازدواج تمزق مركزية المتكلم إلى صوتين يبحثان عن تلاؤم لا منطقي، من خلال أنسنة العلاقات بين المسلم واليهودي، وتقديمها في صورة ثقافية موحدة، ولكن هذا التمثيل المشروخ أفرز كما في كل مرة تناقضا بين الرؤية والواقع الذي تحيل إليه، ففي الحقيقة علاقة المسلم باليهودي في الواقع المعاش منذ القديم إلى الآن هي علاقة متوترة وغير مستقرة، بسبب الظلم والجور والاضطهاد الممارس من طرف اليهود على المسلمين، ولا يمكن اختزالها في الحلال والحرام فيما يخص المأكل والمشرب وطريقة اللبس.

يتعثر السرد في بعض الأحيان، ويخرج عن إطاره المرجعي، لتفجر الحكاية وتنفلت من الداخل عن لسان المعلم الفرنسي (مسيُو ويلْ):

"ولكن قل لي، ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي! أنت حاييم بنميمون مواطن فرنسي أعلى من أرسلان حنيفي درجة! فكيف تقبل مصاحبة أنديجان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك!"[(23)]؛ وهنا ينكشف الولاء الحقيقي على لسان الفرنسي؛ بأن اليهودي مواطن يقربه وهو أعلى درجة من المواطن الجزائري المسلم، وهي الحقيقة الراسخة في عقولهم ولا يمكن تجميلها بأية صورة، ولا إيهام القارئ بما ليس منطقي ولا تاريخي. فعبر هذا المقبوس تلاشت علامات الخطاب المرجعية، وتفكك إطار الحكاية، وأصبح من الممكن التمييز بين ما هو حقيقي وغير حقيقي.

ب. ما وراء الحكي:

إن سؤال ما مسوغات كتابة صورة اليهودي بهذا الشكل الجديد واللافت؟ يقودنا إلى ما وراء حكايته في رواية (السايح)، إذ لا يمكن فهمها إلا بالحفر فيما وراء السرد، يقول الراوي على لسان (حاييم).

"**أبوك الفرنسي هو الذي جاء إلى هذه الأرض. وأهل هذه الأرض لم يدعوه ضيفا، ولا طلبوا منه عونا. وأمك، أمك اليهودية المهاجرة كيف تتزوج نصرانيا مثله...**"[24]. يشتبك السرد هنا بصوت آخر، وهو صوت (النصراني) الذي يحضر هامشيا، في مقابل صوت (اليهودي)، فيتلاقى القامع والمقموع، ويتحيز المنظور في كل مرة لصوت (اليهودي)، وهي استراتيجية تتبناها الرواية منذ الصفحات الأولى لتتحكم في مجال الخطاب وتعطيه مشروعية إقصاء ما يهدد وجوده، مما أدى إلى فرض أحادية الصوت والرؤية. ليظهر (النصراني) هو سبب مشاكل المسلم واليهودي كليهما، وربما هذا هو الدافع من وراء الحكي، والذي يطرح خطابا نقيضا يبحث في أوهام التغيير المبشرة بالخلاص في مرحلة الالتزام السياسي. فرواية "أنا وحاييم" كما يقول (محمد رمصيص): قصة بلا قرار شاهقة العمق وغائرة الإحالة، هدفها تهشيم الاطمئنان والبراءة وزرع الشك والقلق كقيمتان تنتجان اليقظة والتأهب قصد التعايش مع الغريب والمختلف بل والمدهش. [25]

ترتبط هذه التمفصلات الجديدة بتحول في الوعي، من وعي بمشاكل الذات إلى وعي محفوف بهشاشة التفكير، وكارثية الرؤية، التي تتعزز في مواضع أخرى من الرواية، يقول الراوي:

"**لا تتركوا من تبقى من أولاد النصارى بلا عقاب ابحثوا عنهم انتقموا منهم لقتلانا**".[26] فهذا التحول في الخطاب ضد (النصراني)، يتيح بعث التواريخ المنسية، ويمنح السلطة لسرد (اليهودي) بحيث تفقد الذات صوتها الخاص وتتحول إلى مجرد صدى لصوت (اليهودي)، الذي يمنحه الحكي فرصة حاسمة في تحرير الكلام عن ذاكرته وماضيه، بتحرير المناطق المحظورة في الذاكرة واستنطاق المسكوت عنه في التاريخ، وهو ما يدعو إلى إعادة التأمل في هذا الخطاب المتورط في غواية ما وراء السرد، ففي إطار هذه الشفرة الجديدة، يتحرر الحكي من الواقعي ويخضع لرؤية استيهامية تنبثق عن ذات هائمة في غواية الوهم بأن النصراني عدو اليهودي هو عدوي، في حين ما يقول الواقع أن كليهما أصدقاء، وكليهما سبب مشاكل الذات ومعاناتها على جميع الأصعدة. لذا يجب إعادة النظر في مثل هذه الخطابات التي

تعاني خللا في الرؤية بالاحتكام إلى ما هو موجود في الواقع، خاصة وأنها صادرة من النخبة ولها قدرة على إقناع القارئ وتوجيه قناعاته. فالذات اليوم لا تحتاج خطابا يعلمها الإنسانية، وإنما خطابا يمكنها من اكتشاف موقعها الحقيقي بين الأمم.

النتائـــج:

لقد حاولت هذه الورقة البحثية مقاربة مضمون رواية (أنا وحاييم) انطلاقا من بنيتها السردية ومن العنوان كعتبة بارزة، للوقوف على الرؤية والمنظور اللذين يؤطران السرد، وقد تبين أنهما:

مبنيان وفق سياسة تقوض ما هو معتقد وراسخ في ذاكرة الأمة العربية، وتنحو نحو التجديد بمنطق التظليل والزيف، ذلك أن اشتغال صورة (اليهودي) الإيجابية في الرواية المذكورة يبدو غير مألوف ومنافر لما اعتاد عليه القارئ العربي حول اليهودي كشخصية لها دلالاتها ورمزيتها السلبية في الرواية العربية، التي طالما أبدت الالتزام لقضايا الأمة العادلة، وخاصة القضية الفلسطينية التي يرافق طرحها المشهد المأساوي، الذي يعيشه الشعب الفلسطيني منذ احتلال أرضه إلى يومنا هذا، بمنطق الاضطهاد الذي يمارسه القوي على الضعيف، والذي أصبح يقابل بالصمت والتجاهل.

فقد امتد ذلك إلى الرواية العربية التي لاحظنا من خلال رواية (أنا وحاييم) انحياز منظورها السردي للظالم والمعتدي، وتجاهل صاحب الحق والمعتَدى عليه، من خلال محكي منشغل بالمجاملة وذاكرة منفلتة عن مرجعها الأصلي.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا/ باللغة العربية:

[1] آن بانفيلد: الأسلوب السردي ونحو الخطاب المباشر والخطاب غير المباشر، ترجمة: بشير القمري، مجلة آفاق المغرب، المغرب، عدد: 8-9، 1988.

[2] جيرالد برانس: قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، مصر، ط3، 2003.

[3] الحبيب السايح: أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2008م.

[4] حميد لحميداني: بنية النص السردي -من منظور النقد الأدبي-، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1991.

[5] سعد محمد رحيم: أدب ما بعد الكولونيالية؛ الرؤية المختلفة والسرد المضاد، على الموقع: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=44341

[6] عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 2011.

[7] فرج عبد القادر طه وآخرون: علم النفس والتحليل النفسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، لبنان، ط1، (دت).

[8] فيصل دراج: الذاكرة القومية في الرواية العربية -من زمن النهضة إلى زمن السقوط-، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2008.

[9] محمد رمصيص: خبايا القص المضاد، مجلة الكلمة، العدد: 42، أكتوبر 2010م، على الموقع: http://www.alkalimah.net/Articles/Read/3096.

[10] محمد العباس: الرواية العربية نص مضاد لأدائيات الديني والسياسي، مجلة القدس العربي، على الموقع: https://www.alquds.co.uk

[11] - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، لبنان، ط1، 1987.

ثانيا/ باللغة الأجنبية:

[1] Dictionnaire culturel de la langue française sous la direction d'Alain Rey, T3, Le robert, 2005.

[2] Maurice Halbwachs, la mémoire collective, édition Puf, 1950.

الهوامش:

[1]ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، لبنان، ط1، 1987، مادة (ذكر).

[2]فرج عبد القادر طه وآخرون: علم النفس والتحليل النفسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، لبنان، ط1، (دت)، ص204.

[3]المرجع نفسه: ص204.

[4] Dictionnaire culturel de la langue française sous la direction d'Alain Rey, T3, Le robert, 2005, p522.

[5]فيصل دراج: الذاكرة القومية في الرواية العربية -من زمن النهضة إلى زمن السقوط-، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2008م، ص13.

[6] الحبيب السايح: أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2008م، ص11.

[7] Maurice Halbwachs, la mémoire collective, éd Puf, 1950, p13.

[8] الرواية: ص39.

[9] الرواية: ص46.

[10] الرواية: ص79.

[11] عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 2011م، ص05.

[12] الرواية: ص162.

[13] محمد العباس: الرواية العربية نص مضاد لأدائيات الديني والسياسي، مجلة القدس العربي، على الموقع: https://www.alquds.co.uk بتاريخ: 2022/07/05 ، على الساعة: 09:00 .

[14] الرواية: ص75/74.

[15] الرواية: ص228.

[16] سعد محمد رحيم: أدب ما بعد الكولونيالية؛ الرؤية المختلفة والسرد المضاد، على الموقع: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=44341، بتاريخ: 05/ 07/ 2022م، على الساعة: 22:30.

[17]جيرالد برانس: قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، مصر، ط3، 2003م، ص120.

[18]المرجع نفسه: ص121.

[19]آن بانفيلد: الأسلوب السردي ونحو الخطاب المباشر والخطاب غير المباشر، ترجمة: بشير القمري، مجلة آفاق المغرب، المغرب، عدد: 8-9، ص123.

[20] حميد لحميداني: بنية النص السردي -من منظور النقد الأدبي-، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1991م، ص48.

[21] الرواية : ص136.

[22] الرواية: ص34/33.

[23] الرواية: ص34.

[24] الرواية: ص257.

[25]محمد رمصيص: خبايا القص المضاد، مجلة الكلمة، العدد: 42، أكتوبر 2010م، على الموقع: http://www.alkalimah.net/Articles/Read/3096، بتاريخ: 05/ 07/ 2022م، على الساعة: 08:32.

[26] الرواية : ص220.